

تعليق نقد

علاء الفاسي

الأستاذ بجامعة القرويين وجامعة محمد الخامس

ان هذا البحث طريف وقيم تناول فيه الدكتور محمد عبد قضايا اللحن ، والتصحيف والتوليد والتعريب في ضوء علم اللغة الحديث .

تحدث أولا عن معنى « اللحن » في الكلام العربي والتطور الذي حدث في استعماله ونفى وسائل مقاومته ، فقد عرف اللحن أولا بمعنى الفطنة والذكاء وبالتظرف في الحديث ، حينما يخلط بالكلام الاجنبي او الكلام الذي يعتمد فيه الخطأ .

ثم اطلق اللحن على التورية وهو الذي عمل له ابن دريد كتابه الملاحن .

ثم استعمل اللحن في الخطأ في المعاني . وفيه لف الفاضل بن سلمه كتابه الفاخر « فيما تلحن فيه العامة » .

كل هذه الاطلاقات استعملت في معنى اللحن، فصلها المؤلف واستدل لها ولكنه لم يذكر تاريخ التطور الذي تحدث عنه بالمعنى الدقيق للتاريخ . وعلى كل حال فالبحث يتناول بالذات اللحن بمعنى خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصنعة في بنية لكلام او تركيبه او امرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع اولا بين العامة ويتسرب بعد الى الخاصة .

ولا شك ان هذا اللحن امر طاريء على اللغة اذ المفروض في كلام العرب هو الصحة وما حاد عنه يعتبر خطأ .

ثم يتحدث المؤلف عن السمات التي يوصف من اجلها الكلام باللحن . ومنها الخطأ في الاضراب كتنصب الفاعل ورفع المفعول . وكذلك وضع الكلمات في غير موضعها وخطأ المعاني كقولهم خرجنا نتشره اذا خرجوا الى البساتين مع ان التنزه هو التباعد من المياه والارياض ، ومنها استعمال الطرب في الفرح فقط والحشمة في الاستحياء .

وقد اوضح المؤلف سر اعتبار هذا لحننا ، وزعم انهم لم يراعوا تطور الدلالة في الكلمة ، مع ان الكلمات ليست احجارا جامدة .

ثم حاول تفسير الخطأ في احوال بعض الحروف محل بعضها كقولهم دخل في غمار الناس ، مع ان العرب تقول دخل في خمار الناس - بالخاء لا بالعين - بالتطور الصوتي . وبعد ان حدد عشرة امثلة تتعلق ببنية الكلمة قال : ان الحكم عليها بالخطأ جاء في ضوء التواعد الصرفية ، ثم اشار الى نهاية العلماء بهذا النوع من الخطأ .

ثم ذكر امثلة مشرة ، لنماذج الخطأ في التركيب لاهراب كقولهم شكرت لك ونصحت لك ، والصواب شكرتك ونصحتك ، وبين ان الكثير منها يتعلق بتأليف التركيب العربي والامر الذي استقر عليه ، وهو من مباحث علم النحو . وقد اكد ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراسة (لحن العامة) ايراد لما حدث في اللغة الفصحى ، ويكون متصورا على اوساط العلماء وان اطلقوا عليهم العامة ، بخلاف النماذج الاخرى فانها همت مختلف الطبقات .

وقد اوضح صعوبة الوصول الى معرفة تاريخ بدء اللحن وتطوره في العصر الجاهلي ، وان انتقد النحاة بعض العبارات الجاهلية لمغايرتها للقواعد النحوية والصرفية الموضوعتين من بعد .

ولكن اللحن تردد عند العرب مع ظهور الاسلام على انه كان معروفا . وفي عهد الامويين اصبح اللحن ظاهرة خطيرة في استعمال اللغة ، وترتب عنها نشاط علمي متنوع . جاء بامثلة منه كالرحلة للبادية وتأليف الكسائي كتابه الذي لا يزال موجودا بين يدينا (ما لحن فيه العامة) . واستمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، فالقرن الثالث اقل فصاحة من القرن الثاني واكثر لحنا . وفي القرن الرابع وصل اللحن الى مداه .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

نظر العلماء الى هذه الظاهرة من جهة الخطأ ، فقاوموه بعنف ، وبدأت مقاومتهم منذ القرن الثاني ، وهنا جاء بقائمة لاسماء العلماء الذين كتبوا في تقويم اللحن ، تصل حد الثلاثين كتابا .

ثم لاحظ ان هذه المقاومة كانت في القرون الثلاثة الاولى قوية ثم ضعفت بعد .

وقد اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، دون ان يحاولوا استشهادات جديدة وسماحات من العرب غالباً .

وتصدوا غالباً بالعامة الناس العاديين بدليل قولهم الخواص او الخاصة . وجهودهم كلها تنصرف الى تنقية اللغة الفصحى .

لا وجود في هذه الكتب لحديث عن اللحن فكرة وموضوعاً .

ثم يتساءل هل نجحت هذه الجهود التي قام بها اولئك العلماء ؟

وفي فصل خاص يحلل هذا الموضوع ارادة الجواب عن السؤال ، ويقول ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير ، لانهم نظروا اليه من زاوية الخطأ وامتبروه انحرافاً ولم يأخذوا في الاعتبار قوة الاستعمال وقهره والتطور الذي يمكن تربيته على ذلك . مع ان لحن النحويين انفسهم في الاستعمال دلالة على خطورة الاستعمال . والخلاصة انه يؤكد في النهاية ان ما اطلق عليه النحاة منظور اليه من زاوية الخطأ ، وقبل ان يبين مدى نجاحهم فيما قصدوا اليه ، جاء بفصل في :

معنى التصحيف والتحرير وملاقتهما باختلاف المعنى والبنية والاهراب ، وانتهى الى القول بان مجال البحث في الكلمتين واحد ، وهو البحث عن الخطأ الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطأ الاملائي .

ولم تستعمل الكلمتان دائماً في مكان واحد ، بل في معان لها صلة بالخطأ ، من جهة :

1 - من جهة التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحرير .

2 - سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .

3 - علاقة مظاهر الخطأ التي ترتبت على ذلك .

وقد فصل هذه الجهات الثلاث وارجع السبب في ذلك الى الخط العربي الذي لم يكن منقوطة ولا مشكولة . ثم ميزت حروفه بنقط وحركات منفصلة وتابعة للحروف العربية ، ويسأل كذلك عن هذه

السئلة علماء اللغة الذين يعطون لانفسهم حرية رواية الكلمة كما فهموها من السياق .

فالمسؤول اذن الرسم العربي ، والنساخت ووهم العلماء .

وبعد ان اتى بنماذج تمثل الاسباب السابقة ، عقد فصلا لمقاومة التصحيف والتحريرف باسلوب الرواية وتنقية الاخطاء فذكر تطور ذلك على ما ياتي :

1 - ضبط الكتابة العربية بالنقط والشكل .

2 - ضرورة المشافهة في رواية اللغة .

3 - تنقية الاخطاء بجمعها في مؤلفات .

وقد جاء بانتقادات للعلماء على هذه الاسباب الثلاثة وعدم كفايتها لوفاية اللغة من التصحيف والتحريرف .

ولاحظ ان هذا الجانب الذي هو تنقية اللغة بجمع ما صحف وحرف في مؤلفات جانب دراسي بدأ في القرن الرابع الهجري . كتب فيه المؤلفون الذين لم يكتفوا بنماذج التصحيف بل اضافوا الى ذلك تناول قضية التصحيف والتحريرف من حيث نشاتها وعواملها .

ثم تسائل : اكان هذا المجهود حلا للقضية ؟

وقبل الجواب من ذلك فقد فصلا :

لمعنى التوليد في الالفاظ ومصادره اللغوية .

1 - ثم جاء بعرض تاريخي للمولد من حيث استعمال اللفظ ودراسة العلماء لمظاهره .

2 - وبالتحديد النظري لمعنى التوليد كما رواه الاقدمون .

3 - وتحدث عن مصادر التوليد في الالفاظ ودراسة العلماء لنماذجه .

وبعد ان فصل هذه الموضوعات تسائل ايضا عن :

مدى توفيق العلماء في مباحث التوليد ؟

وقبل الجواب منه ايضا انتقل الى بحث عن :

حركة التمريب وتطورها استعمالا ودراسة .

وطبعا فانه يعني بالتمريب معناه الاصيل الذي هو ادخال كلمة اعجمية في الكلام العربي وتبينها ، لا بالمعنى الحديث الذي نستعمله حينما نطالب بتمريب التعليم والادارة مثلا .

وقد بين في هذه الفقرة :

1 - الصورة العلمية لحركة التمريب في الكلام العربي في عصر الاستشهاد

2 - الصورة العلمية لدراسة العرب في الكلام العربي بعد عصر الاستشهاد .

وقد اجاد في بحث الموضوعين وما تفرع عنهما وجود الدخيل في القرآن ، وجاء بقائمة المؤلفات المهمة في موضوع التمريب .

ولاحظ ان التأليف في هذه الظاهرة تاخر نسبيا .

وضمنت فكرة التمهيد لذكر الكلمات العربية بمقدمة علمية تتناول الافكار الخاصة بهذه الظاهرة .

3 - كلمة الدخيل جملة عنوانا لبعض الكتب في موضوع التمريب .

4 - من المؤلفات كتب في التصريب وضعت أخيراً الأمر الذي يدل على أنه لا يريد تناول التصريب في القديم فقط .

- أما الجانب اللغوي فقد عرض فيه نظراً لاقدمين للمعرب وجهودهم في إخضاعه لمسلك الصيغ العربية .

وقد فصل القول في هذا الجانب واتى بتدقيقات مهمة .

ثم تساءل ماذا يستنتج من موقف علمائنا الاقدمين آراء النقل من اللغات الأجنبية ؟
يتلخص ذلك في امرين :

1 - قصر المعرب على العرب وحدهم الذين عاشوا في فترة زمنية خاصة .

2 - فرض قواعد الصيغ العربية على استعمال المعرب من لغات متعددة

ولتقييم ذلك أحال المؤلف على القسم الأخير الذي يجب فيه من الأسئلة المتقدمة .
وفي هذا القسم تناول رأي علم اللغة الحديث من :

1 - اللحن بين محكم القواعد وتطور الاستعمال

2 - التصحيف والتحريف من مظاهر الرسم العربي .

3 - الألفاظ المولدة في ضوء تطور اللغة .

4 - التصريب بين قبود النحاة وحاجة الاستعمال .

وقد فصل آراء العلماء اللغويين المعاصرين في هذه النقط وبين ميزة التسامح التي ظهروا بها آراء المسألة الأولى ، وادلى بآراء اللغويين عرب واهاجم ودعا الى :

1 - تنحية الفكرة القديمة عن المجموعة المدونة فيما لحن فيه العوام واعتبارها تطوراً يهدينا الى دراستها في مراحل استعمالها

2 - النظر في هذه المادة ودراستها مع غيرها من النصوص الموثقة في عصرها ليعلم مدى انتشارها في الاستعمال فيقبل منها ما تحقق له ذلك . وتناول بعد ذلك امر التصحيف والتحريف وأبدى إعجابهم بجهود العلماء فيها وقال : ان العلماء بعد ان عرفوا الضعف الموجود في الرسم العربي لم يحاولوا تغييره ، وقال ان الرسم العربي شأن غيره في اللغات الأخرى قد يشتمل على عيوب ، وهذه العيوب ينبغي احتمالها والرضا عنها ارتكاباً لأخف الضررين ، واستدل على ذلك بنص للعالم اللغوي فندريس .

أما من المولد فقد اعتبر ان الألفاظ المولدة مظهر لتطور اللغة .

وان موقف النحاة من هذه الألفاظ قد تحكمت فيه اعتبارات اعترفوا بها ثم استسلموا لها ، وينتقد عليهم خروجهم عن واجب الاستقرار الى الحكم بالإباحة أو المنع على الألفاظ واعتبر ان الحق المطلق لبعض الناس في ظروف معينة ينبغي ان يعمم على كل جماعة وكل عصر فيقبل ما ولدوه من كلمات دعت اليها حاجة اللغة وهدت اليها سليقتها .

ثم انتهى باستخلاص نظرة المحدثين للعوامل الطارئة على اللغة .

1 - اعتبار التطور في اللغة من اساس النظرية الحديثة للمستوى اللغوي ، وتفسير هذا التطور حسب رأي - فيرس - التغيير المستمر بين عناصر اللغة .

2 - لا تتطابق الكتابة لاية لغة مع نطق هذه اللغة فنحن ، كما يقول فندريس ، لا نكتب كما نتكلم بل نكتب كما يكتب غيرنا .

3 - ان تغير الظروف الاجتماعية ينمكس تأثيره على الالفاظ من حيث اختفاء بعضها واندثاره وحدث الاضر واستعماله .

4 - نقل الالفاظ من اللغات الاجنبية بخضع للحاجات الاجتماعية المتجددة للناطقين انفسهم ، وهذا امر عادي لا خطر فيه .

اعتبر ان هذا الكتاب يكون بحثا قيما خاضعا لمنهج البحث اللغوي الحديثة متسلسلا في افكاره وموضوعاته وفي الاستنتاجات المترتبة عليها ، وانه استقرأ باختصار مباحث الاقدمين عن العوامل الطارئة على اللغة بكيفية لم يسبق جمعها في كتاب حديث ، ثم اعاد تقييمها على ضوء آراء علماء اللسانيات ، ومباحث العرب التي شغلت اوقات الجامع العربية ازيد من نصف قرن ، ولم يتقدم المؤلف باقتراحات تلقائية في تجديد اللغة خارجة عما ورد على السنة الباحثين المجمعين في الشرق العربي . ويظهر ان المؤلف لم يطلع على بعض البحوث التي قام بها المغاربة المختصون لاسيما في اصلاح الرسم العربي الذي وضعه الاستاذ الاخضر والذي يسمدني ان اقول مرة اخرى انه يصلح من ميوب الرسم العربي الشيء الكثير ، كما انه فيما يظهر لم يطلع على جهود مكتب التعريب المغربي ومحاولته لاحصاء كلمات الحضارة واستقرائها والاكتفاء بما هو موجود منها في كتب اللغة او في المجتمعات العربية عن اتخاذ الدخيل الذي ينزع اليه عند عدم وجود الاصيل .

والكتاب بهذه الصفة جيد وجدير لقبوله من اللجنة المحترمة واجازته ، وبالمقارنة مع الباحث الاخرى وآراء المقررين فيها يقع التفاضل وبشم الترجيح ، وان كنت اوصي بكل اخلاص بمجازاة هذا المؤلف على جهده المشرف وطبع رسالته .

